# الفصل الثامن

## عودة الى حظيرة فكرة الكتاب

جمح القلم ، وشرد الخيال ، وطاف بى الفكر فى الفصول السابقة ، فى مسارب مختلفة ، راجيا أن أرضى فى قرائى مشارب مختلفة ... ويجدر بى وجل قرائى من رجال القانون والقلم أن أعود إلى حظيرة فكرة الكتاب ! .

يلعب القضاء والقدر ، أو الصدفة كما اصطلحنا على التسمية دوراً خطيراً فى تكييف المرء فإما جنوح إلى الفضيلة ، وإما جموح إلى الرذيلة .

يبدأ العامل أو الطالب حياته ، إما فى مصنع ، أو متجر ، أو مدرسة يحيط به غيره من العمال أو الطلاب ، وفى هؤلاء : خيرون وأشرار ... يلعب القدر ، وتدور عجلة المصادفات ، فأما صاحب الخير ، فتسربل بسربال الخير ، واما عاشر الشرير فاكتسب رذائل عاداته ، وهكذا تتشكل حياته المستقبلة بالشكل الذى استهل به فجرها .

كذلك الفلاح فى غيطه وقريته ، فإما خالط من هو طيب فطاب خلقه ، أو العكس : وتبعاً لهذا فهو إما أن يجتذبه المجتمع إلى احترام القانون وسلوك الطريق القويم ، أو أن يهوى به خلطاؤه الى مسرح الجريمة .

الأسرة هى العامل الأول فى تكوين الإنسان ، والمصنع أو المدرسة ، أو الحقل فى المرتبة التالية ، فقد يكون البيت مصلحاً ، والمرحلة التالية قاضية على هذا الإصلاح .

وواجب الأسرة يجب أن يطـــرد من الرقابة فى البيت الى الرقابة خارجه ، ومعالجة الناشىء بما ينأى به عن خلطاء السوء .

وقد عملت الحكومة مشكورة على معالجة حال المشردين ، فأصبحنا اليوم لا تصادمنا تلك المناظر المؤلمة ، التى كنا نجدها من أطفال « الأرصفة » و « جامعى الأعقاب » ، فخفت وطأة وجودهم ، ولو أنها لا زالت باقية ، ونسأل الله القوى القادر أن يلهم أغنياءنا مديد المعونة لحكومتنا ، للقضاء على البقية الباقية منهم ، فينقطع بذلك تيار الأجرام فى البلد .... ( وفى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم ! )

وفى ذاكرتى حادث حصل فى سنة ١٩٢٨ ، وكنت معاوناً للضبط بمديرية الجيزة ، عن واقعة حال ، لمستها فى وسط هؤلاء المشردين .

غلام اعتدى على آخر ، محدثاً به إصابات جسيمة : انتقلنا لمحل الحادث ، فوجدنا المصاب ، وهو غلام لا يعدو الثالثة عشرة من سنى عمره البائس ، ملقى على الأرض ، تسيل دماؤه من جرح غائر فى جنبه الأيسر ، وسار التحقيق قدماً ، فاذا هو يسفر عن أن بين الجانى والمصاب فتاة ، سنها لا يربو عن العاشرة ، كلاهما متيم بها ، يضمر الشر لصاحبه ، غير أن الجانى كان أشد مراساً وأقوى ، فاحتازها ، وطفق المجنى عليه يحتك به ويصاوله ، حتى فرغ صبر الجانى ، فشحذ سكيناً واعتدى على منافسه : والمضحك والمبكى أن الكشف الطبى أسفر عن ان فتاة العاشرة « امرأة » .

هؤلاء الصبية مصريون ، لحماً ودماً ، لهم مالنا من حقوق — غير أن القدر دار بهم دورته لأسباب متعددة المناحى ، مختلفة

متشعبة ، فاذا هم فى الشوارع منها مساكنهم وفيها مطاعمهم ، وعلى أرصفتها يعقدون اجتماعاتهم ، وتتدرج بهم الفاقة والتشرد والعوز إلى ارتكاب مالا يمكن تصوره من الجرائم : أليس لهؤلاء حقوقاً على المجتمع ؟!.

ان بعض الآلاف التى تنفق على التمثيل السياسى — مثلا — لو أنفقت فى هذه الناحية ، لكانت أجدى وأجدر . .

وحبذا لو راعت الحكومة والأغنياء من المصريين الذين تتضخم ثرواتهم فى « البنوك » أن ينفقوا القليل من مالهم فى هذا السبيل ، فتمحى هذه الوصمة ، وتستفيد الأمة من إنتاج هؤلاء المشردين : وبهذا تدور عجلة القدر دورة عكسية ، كلها الخير والبركة : فقد يكون بين هؤلاء المساكين من هو أرجح عقلا ، وأكثر كفاية من كثير من أبناء السادة ، فان عولج فى مستهل حياته أثمر وازدهرت كفاءته وتجلت مواهبه ، فيفيد ويستفيد : وتستطيع الحكومة والبرلمان سن تشريع ، يفرض ضريبة على الموسرين والموظفين والمحامين ، والأطباء ، والتجار لا تزيد عن ١ ٪ مثلا من أرباحهم ومرتباتهم وترصدها لعلاج مشردى الأقدار ، حتى إذا ما شبوا ونجحوا ، استطاعت أن

تعوض من إنتاجهم ما أنفقته فى سبيلهم ، فضلا عن أن فى صلاحهم صلاح للمجتمع الذى نعيش فيه ! .

أما فى الريف وفى الصعيد ، فليس أسهل على وزارة كوزارة الشؤون الاجتماعية ، تعاونها وزارة الداخلية من أن تعمل على نشر الثقافة البدائية بين الفلاحين ، فتسير بهم على هدى هذه الثقافة وبث ميادين الرياضة والتمثيل المنتج إلى طريق مستقيم يتعلمون فيه أن الخير فى البعد عن الجنوح إلى مهاوى الرذيلة ، وتستعين بالدين والوعظ والإرشاد ، الى اقتلاع جذور تأصلت فى نفوسهم كحب الأخذ بالثأر مثلا ، فيتعلمون أن فى التسامح والإغضاء خير ، وأن الدين والإنسانية والمجتمع يجب أن يتغلب فيها اللين على الشدة ، فيدرجون على احترام القانون ، وبذلك ينخفض منسوب الإجرام ، ويضعف تياره ، وقد يقف ... فبدلا من أن يجتمع الفلاحون مثلا حول أكواب الشاى ونار « الجوزة » يجتمعون فى ناد صغير متواضع ، حيث يجدون الرياضة بضروبها فتشتد سواعدهم وتصقل أفكارهم : وهذا المشروع لايكلف الكثير ، ويكفى أن يجمع من كل قرية أو قرى متجاورة بضع

عشرات من الجنيهات ، مع رقابة إدارية مستمرة للنهوض به وتنفيذه ، وإنى لقمين بنجاح هذه الفكرة ، وفى إبرازها القضاء على كثير من مناحى الإجرام الذى يكون وليد اجتماعات الفلاحين على ضوء النار ، وحول أكواب الشاى ، وقد أطلق عليه أخيراً « الموت الأسود » .

هذه الاجتماعات يترتب عليها شر كبير : وأروى لهذه المناسبة أن فلاحاً عمره خمسة عشر عاماً ، اعتدى على أخ له فلاح من بلدة مجاورة : تمخض ذهنه المضطرب عن فكرة جهنمية هى القضاء أولا بأول على مال الفلاح المعتدى : ففى موسم القمح وقد ازدهرت سنابله وحان قطافها ، ورأى الصبى أن فرصة قد سنحت فاستحضر « قطاً و « فراناً » وغمرهما « بالبترول » وأشعل فى فرانها النار ، وأطلق الجرذان والقطط مشتعلة فى غيط القمح فكانت سعيراً لم تبق ولم تذر ...

وهكذا سار على هذا الدرب فاقتلع « المقاته » وأتلف ثمار حديقة خصمه : وما أن تحقق هذا من ألاعيب الصبى حتى بعث اليه من أطلق عليه عياراً ناريا ، كان فيه القاضية :

لو وجد هذا الصبي مرشداً ، أو هاديا لأدرك أن اعتداء خصمه على أخيه ، كان من السهل علاجه بداءة ذى بدىء ، فلا اعتدى هو ، وأمعن فى اعتدائه ، وهو وليد ذهنه المريض ، ولا مات قتيلا ، وهو فى شرخ الشباب . هذا مثل والأمثال كثيرة .

المرشد والهادى فى حالة الفلاح هما الدين أولا ، وبث تعاليمه السمحة ، والرياضة بما يتركز فيها من صحة البدن والنفس : فسيروا الى الأمام أيها الحكام والأغنياء . فبهذه الأفكار وغيرها يمكن تفادى عشرات الحوادث ، فيخلق جيل جديد يسير قدماً بالأمة الى مناحى الرقى والفلاح ... ثم إن النظام الإدارى عندنا عليل ، يحتاج الى علاج طويل ... ولهذا النظام قواعد قديمة ، هى فى الواقع سبب من أسباب موجة للاجرام فى الريف يمكن القضاء عليها .

فتقسيم القرى الى طوائف وشيع بوجود الخفراء وشيخهم ومشايخ البلاد ، وعلى رأس هذا النظام الفاسد « عمدة » : هؤلاء من أسر تنافسهم اخرى ، فترتكب على ضوء فكرة القضاء على

منصب العمدة مثلا أو الشيخ جرائم تهز البلاد تعقبها ردود من فريق العمدة وهكذا دواليك ... وإنى أقترح أن يكون الحكم فى القرى محلياً وبطريق الانتخاب .. هذه الفكرة ستبدأ مضطربة مشوشة النتائج ، غير أن الوليد ينمو والضعيف يشتد ، وتقوى الثقة بالنفس ، فتنصلح الأمور ، ويخف ضغط الجريمة : ومن السهل على رجال الحكم أن يستبدلوا نظام الخفراء بنظام آخر كأيجاد قوات من رجال البوليس «عساكر وصف ضباط» لمراقبة الأمن ، والضرب على أيدى العابثين به ، على أن يكون هؤلاء العساكر ورؤسائهم كثيرى التنقل ، فلا يقيمون فى قرية واحدة مدة تكفى لاختلاطهم بأوساطها ، وفى نجاح هذه الفكرة قضاء على الكثير من الجرائم التى يغفل أو يتغافل الخفراء عنها .

ويمكن القضاء على جرائم كثيرة بايجاد نظام «قاضى الصلح» فى القرى بأن ينتخب من أكثرية القرية رجل يتولى الفصل فى المنازعات البسيطة ، فيخمد النار بخبرته قبل استفحال شررها ، يعاونه فى ذلك رجل دينى ، كمأذون الشرع مثلا : وفى هذا كبت لجرائم خطيرة قد تكون وليدة مشكلات يسيرة .

ان احتج رجال التشريع والحكم بتدبير المال فهذه مشروعات

وأفكار لا تستنفد من المال إلا نذراً يسيراً ينتج خيراً وفيراً ، وأمة على رأسها المصلح العظيم ﴿ فاروق ﴾ حفظه الله لجديرة أن تنبوأ بأرشاداته السامية ولفتاته الكريمة مقاماً محموداً ، وحبذا لو عمل ولاة الأمر على السير على سننه ، ففيه الخير كل الخير ، ويعمل كل محب لأمته منا على تقويم الأخلاق ، فحيث تقوم يختفي شبح الجريمة . وصدق شوقي رحمه الله :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا